رابعاً: مصادر الثقافة الإسلامية

تنبثق الثقافة الإسلامية من جملة مصادر يمكن تقسيمها إلى نوعين:
مصادر أساسية ومصادر ثانوية.

١- مصادر أساسية

- القرآن الكريم
- السنة النبوية المطهرة

٢- مصادر ثانوية

- الفقه الإسلامي
- التاريخ الإسلامي
- اللغة العربية

١- المصادر الرئيسية

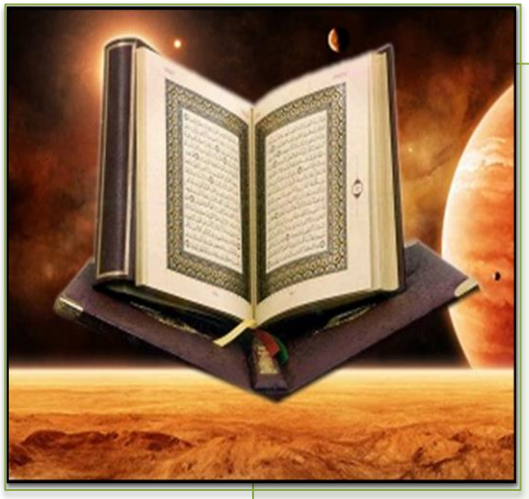

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما المصدران الرئيسان لحياة المسلمين على مرّ العصور، ولهما الأثر الأكبر في:

١- ضبط سلوكهم وكل شأن من شؤونهم.

٢- وفي تشكيل فكرهم ومعتقدهم ورؤيتهم للكون والإنسان والحياة.

والسيرة النبوية جزء مهم من السنة النبوية، حيث تمثل الحياة المباركة للنبي ﷺ وسلوكه وأخلاقه وعبادته وتعامله، مصدراً عمليّاً مهمّاً للثقافة الإسلامية، إذ هي التطبيق العمليّ الصحيح للإسلام، وأسلوب الحياة كما يريده الإسلام، وقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء بالنبي ﷺ في حياتنا وسلوكنا وكلّ شؤوننا، حين قال:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١)

١- المصادر الرئيسية

تمتاز سيرة النبي ﷺ بميّزتين لم تتوافرا في سيرة أيّ إنسان آخر وهما: الوضوح والشمول.

أولاً: الوضوح

فحياة النبي ﷺ معروفة منذ ميلاده إلى يوم وفاته ، وليس في حياته أحداث غامضة أو فترة زمنية مجهولة. و ذلك يسدّ الباب على كلّ مشكك، أن يقول: إن النبي ﷺ ربّما قام بأعمال معينة لا نعلمها، تخالف ما يدعو إليه، أو إنه ربّما التقى بأناس علّموه هذا القرآن والدين الذي جاء به.

١- المصادر الرئيسية

ثانياً: الشمول

فحياة النبي ﷺ تجسيد لجميع جوانب الحياة الإنسانية . فهو ﷺ الإنسان السامي في أخلاقه وتعامله، وهو الأب الرفيق الحاني على أولاده، والزوج اللطيف بزوجه الرفيق بها، يعاشرها بالمعروف، وهو الحاكم العادل الذي يعيش مع الناس ويستمع لهم، والشاب الذي يتصف سلوكه بالاستقامة والبعد عن الفواحش. وذلك أن النبي ﷺ هو آخر رسل الله إلى الناس، وقد بعث ليكون قدوة للناس كافة في جميع جوانب الحياة الإنسانية، فهو القدوة للزوج مع زوجه، وللأب مع أولاده، وللحاكم مع شعبه، وللصديق مع صديقه، وللجار مع جاره، وللمصلح الاجتماعي مع مجتمعه.

٢- المصادر الثانوية

أوّلاً: الفقه الإسلامي

- **تعريفه:** للفقه الإسلامي أثره في حياة المسلمين، فهو: « العلم الذي يبحث في أفعال المكلَّفين من حيث الحِلّ والحُرمة» .
- **ماذا يمثل للمسلمين ؟** وبالتالي فهو يمثل معايير تحكم حياة المسلمين وتحدّد لهم ما يجب فعله وما لا يجوز فعله، استقاها العلماء بالاعتماد على نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية وأصول الشريعة ومقاصدها العامة.
- **ماذا حقّق للمسلمين؟**

١- شكّل الفقه الإسلامي نقلة تشريعيّة نوعيّة، نقلت البشريّة من القوانين البشرية البدائيّة إلى القانون الإلهي.

٢- وجاء بمبادئ تشريعية لم تكن معروفة من قبل، ولم يصل الغرب إلى بعضها إلا حديثاً.

يعرّف العلماء الفقه الإسلامي بأنّه :

« علم الأحكام الشرعيّة العمليّة، المكتسب من أدلّتها التفصيليّة».

٢ـ المصادر الثانوية

أوّلاً: الفقه الإسلامي

- شبهة حول الفقه الإسلامي: بسبب ما يمثّله الفقه الإسلامي من أهميّة في صياغة حياة المسلمين وفق أحكام الإسلام، استهدفه أعداء الأمة بمحاولة الغض من قدره، وكان مما زعموه: « إن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني» .

- ردّ الشبهة :

الرد الأول: هذه دعوة لا سند لها ، والناظر في الفقه الإسلامي وفي القانون الروماني يدرك البون الشاسع بينهما في الأسس والمبادئ والمضمون، ويدرك مدى التطوّر التشريعي الهائل الذي نقل به الفقه الإسلامي البشرية عما كان عليه الحال قبل الإسلام.

أ- ففي الفقه الإسلام نظم تشريعية لا مثيل لها في القانون الروماني ، مثل نظام التوارث.

ب - كما جاء الفقه الإسلامي بمبادئ تشريعية عظيمة خلا منها القانون الروماني، مثل: مبدأ الرضائية في العقود، الذي قرره قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾
(النساء: ٢٩)

في حين سادت في القانون الروماني الشكليةُ المقيتة، التي لا تعتد بالعقود ، إلا إذا أفرغت في أشكال رسمية معينة.

مبدأ الرضائية في العقود: هو مبدأ سبق إليه الإسلام منذ أكثر من ١٤ قرناً، ولم يهتدِ الغرب إليه إلا عندما صاغ قوانينه الحديثة، وهو مبدأ يعدّه الغربيون تطوراً نوعياً في القانون .

٢ـ المصادر الثانوية

أولاً: الفقه الإسلامي

الرد الثاني: وفي المقابل تضمن القانون الروماني نظماً قانونية لم يقرّها الفقه الإسلامي ، مثل:

١ـ نظام التبنّي
٢ـ والسلطة الأبوية للأب على أسرته، أن يتصرّف فيهم وفي أموالهم بالبيع
٣ـ وسلطة الزوج على زوجته، أن يتصرّف فيها وفي مالها كما يشاء
٤ـ وسلطة الدائن على مدينه في استعباده إذا أعسر بالسداد.

الرد الثالث: ويؤكد بعض الباحثين الغربيين المنصفين أثر الفقه الإسلامي في قوانين أوروبا الحديثة، وخاصة الفقه المالكي منه، وذلك من خلال اتصال الأوروبيين بالمسلمين في الأندلس.

الرد الرابع: كما قد أشاد بفضل مبادئ الفقه الإسلامي وتشريعاته وصلاحيته للتطبيق العديدُ من المؤتمرات الدولية الحقوقية التي عُقِدت في العصر الحديث.

وينبغي الاستفادة من الثروة الفقهية التي خلّفها لنا أسلافُنا دون وقوع في التقديس المطلق لها، فهذه الثروة – على عِظمها – تبقى اجتهادات بشرية لعقول عظيمة ومخلصة، لكنّها قد تخطئ أحياناً، تأثراً ببيئتها أو لسبب آخر.

يقول المؤرّخ الفرنسي سيلو: إن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهي في مذهب الإمام مالك، هو: شرح الدردير على متن خليل، مع العلم أن الكتاب المذكور مشهور اليوم متداول بين دارسي الفقه الإسلامي.

٢ـ المصادر الثانوية

ثانياً: اللغة العربية

ترتبط اللغة العربية بالإسلام ارتباطاً وثيقاً، فهي :

١ـ لغة القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي

٢ـ وأحد أهم أسس هوية الأمة وذاكرتها ووحدتها.

مهاجمة المستشرقين و أتباعهم للغة العربية :

بسبب الأهميّة البالغة للغة العربية هاجمها المستشرقون وأتباعهم، زاعمين « أنها لغة معقدة ولا تناسب العصر، ودعا بعضها إلى استبدالها بالعامية، ودعا آخرون بكتابتها بالحروف اللاتينية».

وهدفت هذه الدعوات إلى:

١ـ تفريق المسلمين من خلال تعدد لغاتهم.

٢ـ قطع صلتهم بكتابهم وسنة نبيهم وتراثهم.

٣ـ ربطهم بالأعداء ارتباط التابع بالمتبوع والعبد بسيّده.

كيف نردّ على هذه الدعوات ؟

الرد الأول : الحقيقة أن اللغة العربية هي أفصح اللغات وأبينها في التعبير عن حقائق الأشياء والمشاعر، وتمتاز بـ:

١ـ سعة مفرداتها

٢ـ ودقة ألفاظها ومعانيها

٣ـ وتنوّع أساليبها

٤ـ وقابليتها الكبيرة للاشتقاق ومواكبة التطوّر العلمي والحضاري، حتى قيل: أن العرب سُمُّوا عَرَباً، لقدرتهم على الإعراب عمّا في نفوسهم، ولم يُعرف عن أمة أنها أقامت أسواقاً للتباري في البيان والكلام مثل العرب.

ولذلك شاء الله تعالى أن ينزل القرآن الكريم بهذه اللغة ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ الزخرف: ٣

ألاحظ :

جاء التعليل في الآية الكريمة بـ « لعلكم تعقلون» مما يدلّ على أنّ اللغة العربية أقدر اللغات على إيصال أدقّ المعاني والتصورات والحقائق والتعبير عن اصدق المشاعر.

٢ـ المصادر الثانوية

ثانياً: اللغة العربية

يقول حافظ إبراهيم في قصيدته المشهورة في اللغة العربية، وعنوانها: اللغة العربية تنعى حظّها بين أهلها:

وَسِعتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً
ومـا ضِقْتُ عن آيٍ به وعظـــاتِ

فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ
وتنسيقِ أسمـــــاءٍ لمخترعـــاتِ

أنا البحرُ في أحشائهِ الدرُّ كامنٌ
فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي؟

الرد الثاني : وجوانب عظمة اللغة العربية لا تقتصر على المعاني الدقيقة والمدلولات العميقة، بل تمتد لتشمل الجوانب الشكلية أيضاً مثل: الصوت والكتابة. يقول الأديب الفلسطيني خليل السكاكيني في اللغة العربية:

أ- الصوت

« لو قابلت كثيراً من مفرداتها بمثلها في لغات أخرى، لظهر لك أنها أنسب للمعنى، وأبين للفكر، وأطول لإظهار أعمق التأثرات:

١- فلفظة (لا) النافية للجنس أنسب من كل أدوات النفي في أي لغة كانت، إذ يسهل معها مد الصوت.

٢- والصفات التي تجيء على وزن (فاعل) مثل: واسع وغافر وطاهر وكامل، أو على وزن (فَعيل) أو (فَعول) مثل: كبير ، عظيم عليم سميع، أو صبور غفور شكور، أطوع للتعبير عن أعمق التأثرات، لما فيها من الحركات الطويلة، إلخ،

٣- وكلمة (حق) بحائها وقافها المشددة العميقة، لا تعادله كلمة أخرى من أي لغة في الدلالة على معناها، ولا بد أن الناطق بهذه اللفظة يشعر بالحق أكثر من غيره، وليس ذلك فقط، بل لها تأثير في السامع، بحيث تصل إلى أعماق قلبه وتحدث في نفسه هزة».

٢ـ المصادر الثانوية

ثانياً: اللغة العربية

ب- الكتابة

وفي اللغة العربية مثلاً يكتب المرء في الغالب الأعمّ ما يلفظ من حروف ويلفظ ما يكتب منها، أي: ثمة توافق كبير بين الملفوظ والمكتوب، بخلاف لغات العالم الأخرى التي لا تخلو لغة منها من :

- حروف صامتة تُكتب ولا تُلفظ (make - eat)

- ولديها أصوات مختلفة للحرف الواحد حسب موقعه في الكلمة

(car - circle) (sat - save)

- ولديها حروف متعددة للصوت الواحد.

(Picture - pick - lake)

والشواهد على ذلك كثيرة لا تخفى على مقارن منصف.

انتبه

تواجه اللغة العربية اليوم مخاطر جديدة، فهناك فئة من الناس وتحت تأثير الانبهار بالآخر والشعور بالنقص ، تقوم عبر وسائل الإعلام باستخدام اللهجات العامية بدل الفصحى حتى في برامج الأطفال مما يؤثر سلباً على لغتهم.

فيجب علينا المحافظة على العربية والتمسك بها، وأن نجتهد في تعلّمها والتكلّم بها :

١- كي نستطيع فهم القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ

٢- ولا ننعزل عن التراث الحضاري الذي خلفه لنا أسلافنا، باعتباره من مقومات ذاكرتنا وهويتنا ووحدتنا.

٢- المصادر الثانوية

ثالثاً: التاريخ الإسلامي

إن التاريخ الإسلامي، وخاصة في أوقات الازدهار والتقدم والفتوح، ليس مجرّد أحداث مرّت، بل هو حركة حيّة غَيَّرَت مسار البشريّة، وحرّرت الإنسان من طواغيت الأرض ومن الظلم والاستعباد.

ولا يزال التاريخ الإسلامي يلعب دوراً ملهماً في تشكيل الشخصية الإسلامية، ويثير في المسلم مشاعر العزة والكرامة، ويبعث فيه الأمل بإمكانيّة النهوض والعودة الى صدارة الأمم من جديد، ولا يزال ماثلاً في ذهن كل مسلم : حزم الصِدّيق رضي الله عنه، وعَدل عمر رضي الله عنه، وبَسالة خالد رضي الله عنه، وعلم ابن عباس رضي الله عنه، وعقل ابي حنيفة، وإتقان البخاري، وطب ابن سينا، وبصريات ابن الهيثم، رحمهم الله جميعاً.

٢ـ المصادر الثانوية

ثالثاً: التاريخ الإسلامي

شبهات حول التاريخ الإسلامي وردّها:

سعى أعداء الإسلام إلى تشويه التاريخ الإسلامي، ليفصلوا حاضر المسلمين عن ماضيهم ويحُولوا دون انبعاثهم من جديد ، ومن ذلك أنهم صوّروه تاريخ نزاعات وحروب وفتن.

ونوجز الرد على هؤلاء بما يأتي:

الرد الأول: إنه لم يخلُ تاريخ بشري من النزاعات والحروب، فهذا دأب البشر أنهم ، حين يختلفون، قد يجرّهم الاختلاف الى التقاتل والتنازع.

والتاريخ الإسلامي هو أقل تاريخ بشريّ شهد مثل هذه النزاعات وسقط فيه قتلى.

فهذا التاريخ الأوروبي الذي يتغنّى به بعض الناس، قد شهد صفحات دمويّة لا تقارن بما شهده التاريخ الإسلامي من نزاعات، وخذ مثالً على ذلك:

١- الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت في عصور أوروبا الوسطى، وقد ذهب ضحيتها ملايين الناس.

٢- والحربان العالميتان الأولى والثانية ، في النصف الأول من القرن العشرين.

هما حربان أوروبيتان، وهما الأكثر دمويّة وتدميراً في التاريخ البشري، حيث ذهب ضحيتهما أكثر من خمسين مليون إنسان من الأوروبيين وغيرهم، في سابقة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

٢ـ المصادر الثانوية

ثالثاً: التاريخ الإسلامي

الرد الثاني:

إن التاريخ الإسلامي متعدد الجوانب، والذين يصورونه تاريخ حروب وفتن، يضخمون نقاط الضغط فيه على حساب الصفحات المشرقة، في الجوانب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والحضاريّة، فهذا التاريخ هو الذي:

١ـ فتح الفتوحات العظيمة التي حرّرت الناس من الطواغيت، وتسامح أهله مع الآخرين تسامحاً غير معهود ولا مسبوق.

٢ـ وقدّم للبشريّة مخترعاتٍ و علوماً متقدمة، وخطا بها خطوات نوعية نحو التقدم الذي تشهده الآن، في شتى المجالات العلمية والحضارية، في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء وغيرها.

وقد رصد هذا الأثر َالهائل َ للحضارة الإسلامية في العالم وفي الحضارة الغربيّة بخاصة، عدد من المنصفين من المستشرقين الغربيين، مثل: ارنست رينان، وزغريد هونكة ، التي تقول في مقدمة كتابها الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب):

« وأردتُ أن أكرم العبقرية العربية، وأن أتيح لمواطنيَّ فرصة العود إلى تكريمها، كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرمهم من سماعه طويلاً، تعصّب ديني أعمى أو جهلٌ أحمقُ ».

٣- والتاريخ الإسلامي قد شهد ما يُعرف اليوم بمؤسسات المجتمع المدني، فانتشرت فيه معاهد العلم والثقافة والمستشفيات ودور رعاية الأيتام والمؤسسات التجاريّة الخاصة، وازدهرت فيه التجارة والصناعة والزراعة، وظلّ مجتمعاً فاعلاً رغم ضعف الدولة الإسلامية وغيابها.

٢- المصادر الثانوية

ثالثاً: التاريخ الإسلامي

ملاحظات هامة:

١- على أننا لا ينبغي أن نواجه تطرّف المستشرقين، بتطرّف مضاد يُبالغ في تقديس التاريخ الإسلامي إلى حد تسويغ ما وقع فيه من أخطاء، فهو، على أهميته ومنجزاته، تاريخ صنعه بشر، صدرت منهم أخطاء لا يقرّها الإسلام.

٢- كما علينا أن نتثبّت من الرواية التاريخية، والتي لم تحظَ بالتمحيص والتثبت مثل ما حظيت رواية الحديث النبوي، من الجمع بين الروايات التاريخية للحادثة الواحدة من أكثر من مصدر تاريخي، من أجل تكوين صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة، وبذلك نفوّت الفرصة على الذين يتلقفون بعض الروايات التاريخية الضعيفة ومن مصادر غير موثوقة من أجل أن يدعموا طعونهم في التاريخ.

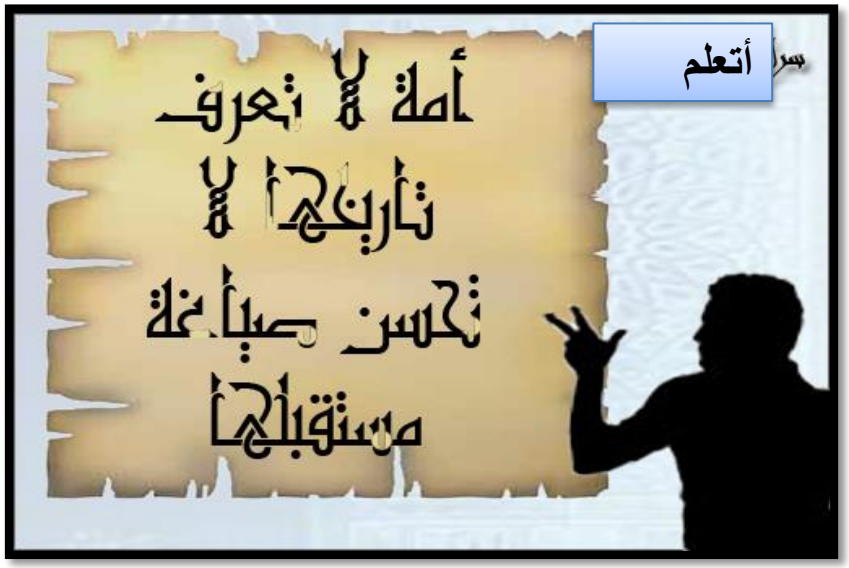

أناقش:

من مزاعم المستشرقين : أن الفتح الإسلامي، كان حركة غزو ونهب لخيرات البلاد المفتوحة، لصالح مركز الدولة الإسلامية في المدينة !